الطفولة المعذبة

[الظلم . . . ولا شيء غير الظلم يمكن أن يؤثر فى أحاسيس الأطفال ، وينطبع فى أذهانهم فى هذا العالم الصغير الذى يعيشون فيه] .

(تشارلس دكنز)

قصة

ليوم الجمعة فى تقدير الأطفال شأن وأى شأن ، وله فى نفوسهم أثر وأى أثر . . . فما يكاد يقبل حتى يستقبلوه وقد فاضت نفوسهم بالبهجة والفرح . . . ويشعروا فى رحابه بالحرية والانطلاق ، ويقضوا فى أثنائه ساعات هنيئة مرحة لا ينقص من متعتها هذه القيود الثقيلة التى تفرضها عليهم المدرسة ، ولا هذه الدروس المملة التى يلقنها إياهم مدرسون ثقلاء بالرغم منهم بين جدران الفصول . . . وما يكاد هذا اليوم الحبيب ينتهى حتى يودعونه واجمين ساكنين ، ويروحون يعدون له الأيام واحداً واحداً ، ويترقبونه بفارغ الصبر وقد امتلأت مخيلاتهم بما يمكن أن ينعموا فيه من لهو ومرح .

***

كان صباح هذه الجمعة مشرقاً دافئاً بالرغم من أن الوقت شتاء . . . وكانت الشمس قد ارتفعت فى السماء ، ونشرت أشعتها الوضاءة المتلألئة على الكون فملأته حيوية وحرارة . . . وكأن هذا الدفء قد سرى فى أوصال أطفال الحى فألهب من نشاطهم ، وزاد إحساسهم بالمتعة بما هم فيه ، فانهمكوا فى لعبهم جذلين مرحين ، غير عابئين بالأخطار التى تهددهم بين وقت وآخر من سيارة مارقة ، أو حمار يطرد . وكانوا يلعبون الكرة — لعبتهم المفضلة — وكان نصيب (محسن) من التوزيع هو حراسة المرمى . . . وكان واقفاً فى تلك اللحظة ، وقد حمى وطيس اللعب وبلغ الحماس فى نفوس الأطفال مبلغه ، يراقب اللاعبين باهتمام بالغ .. وكانت عيناه تتنقلان مع الكرة ومع اللاعبين وتراقبهم فى يقظة واستعداد . . . واستولى هذا الاهتمام على أحاسيسه فلم يعد يشعر بما حوله . . . وفى لحظة . . . كان أحد المنافسين يتأهب لتسديد الكرة إلى المرمى وقد تهيأ محسن لاقتناصها لحماية الهدف ، إذ بصفعة قاسية مفاجئة تهوى على صدغه . . .

فتأوه من الألم ، وجاشت نفسه بالغضب ، واحمر وجهه وصرخ متوجعاً وهو يلوى وجهه ليرى من المعتدى . . .

— من هذا يا ح . . .

ولم يستطع أن يتم سبابه . . . فما كاد يلتفت حتى رأى والده يسد أمامه الطريق كالمارد الجبار بوجهه الصارم ، وعينيه المحمرتين من الغضب . . . فسرى الرعب فى مفاصل محسن وهبط قلبه . . . وقال له والده أخيراً بصوته العالى الكريه . . .

— يا حمار . . . ألم أمنعك من الخروج .. فما الذى أتى بك إلى هنا ؟ . . . وامتلأت نفس الصبى بالمعانى ، وتزاحمت فى ذهنه الأعذار وبذل مجهوداً كبيراً لكى ينبس بحرف للدفاع عن نفسه . . . ولكنه لم يستطع . . . وأنه لم يجرؤ ، فهو يعرف جيداً مغبة هذه الجرأة . . . فالأولى له أن يصمت ، وإلا كان نصيبه بدل الصفعة صفعات .

وفى هذه اللحظة كان الأطفال قد تركوا ما هم فيه من لعب إثر هذا الحادث ، وتجمهروا حول الأب وقد امتلأت نفسه بالغضب ، والطفل وقد استولى عليه الجزع ، وراحوا يرددون النظر بينهما فشعروا بفطرتهم السليمة بالكراهية والنفور من قسوة هذا الرجل ، وبالعطف والرثاء لزميلهم المسكين ، وودوا فى قرارة نفوسهم لو أن كان فى إمكانهم أو فى طاقتهم أن يعينوا صاحبهم ويدفعوا عنه هذا العدوان .

وصاح الرجل فجأة بابنه الوجل وقد نفد صبره :

— مالك لا تنطق ؟ . . . أأنت أخرس ؟ . . . أليس فى فمك لسان ؟ . . . وبلع المسكين ريقه من فرط الحيرة ، وبذل مجهوداً وهو يقول بصوته الخافت المرتعش وبعباراته المتقطعة . . .

— جئت . . . جئت . . . لكى . . . ألعب .

ولطمه والده على خده لطمة قاسية وهو يصيح فيه كمن فقد رشده :

— جئت لكى تلعب ! ! ها ! ! ما شاء الله... ويعترف بذنبه أيضاً ... وأحس الصبى بالقهر يعتصر قلبه اعتصاراً وهو يرى هذا الظلم ينصبُّ عليه ولا يستطيع له رداً ... وانخرط فى بكاء متقطع مرير ... وصاح والده بلهجته الصارمة الجافة :

— ويبكى أيضاً ... الغبى ... أتحسب أن بكائك هذا سيشفع لك ، أو يخفف عنك ما تستحقه من عقاب ... هيا الآن أمامى إلى البيت ... هيا ...

وركله برجله فذهب المسكين إلى المنزل باكياً ملتاعاً كسير الفؤاد وهو يحدث نفسه : « لماذا كان من نصيبى هذا الأب الفظ الغليظ ... لماذا لم يكن لى واحد عطوف كوالد صديقى إبراهيم ... فإنه لا يضرب ابنه كما يضربنى والدى أنا ... ولا يمنعه من اللعب فى أيام العطل ... وقد أخبرنى هذا الصديق أنه يحضر له كثيراً من الهدايا والحلوى .. وقد اشترى له أخيراً عجلة حمراء اللون ... ما أجملها ... ليت لى واحدة مثلها ... ولكن كيف أطمع بدراجة وأنا لا أستطيع أن أظفر بحذاء جديد بدل هذا الحذاء البالى الذى لا أملك غيره ؟ ... فكم استعطفت والدتى بأن تتحدث إليه فى هذا الشأن (فهى الوحيدة فى المنزل التى أجرؤ على التحدث معها والتعبير لها عن مطالبى ...) وقلت لها إننى أخجل أن أذهب إلى المدرسة واختلط مع رفقائى وأنا أحتذى هذا الحذاء الممزق القديم ... ولكنها تتهرب وتحاول دائما أن تصرفنى عن هذا الحديث ، أو تعدنى بأنها ستفعل ذلك فى المستقبل .. ولكن الأيام تمضى وتمضى وهى لا تفعل شيئاً ... ولكنى أعلم أن الأمر ليس فى يدها ولكنه فى يد هذا الوالد الشرس ... وهى تخشى بطشه وسلاطة لسانه ... صحيح أننا لسنا بأغنياء ... ولكن والدى لا يعجز عن شراء حذاء واحد لى ، وخزانته ملأى بالأحذية والملابس ... وهذا الأب ... إننى يخيل إلى أحيانا أنه يكرهنى كرهاً شديداً ... نعم إننى أدرك ذلك جيداً ... أقرأه فى وجهه القاسى الكريه وهو يضربنى ... لا كما يضرب الآباء أبناءهم ... ولكن كان بهم باغتيالى كأن بينى وبينه ثاراً ...

وإن العجب ليستولى على حينما أراه يهش لغيرى من الأطفال ، ويبتسم فى وجوههم ولا أستطيع أن أتصور أنه يعرف كيف يبتسم أو يلاطف أحداً ... وأعجب لهؤلاء الأطفال كيف لا يخشونه كما أخشاه أنا ، ولا يفزعهم بنظرته كما يفزعنى ... وفيما هو فى هذه النجوى الصامتة إذا بصوت يردد اسمه وكأنه يأتى من بعيد :

— محسن ... محسن

وانتبه الصغير إلى نفسه ، وانقطع تيار خواطره ، والتفت إلى مصدر الصوت ، فإذا صاحبه هو ابن خالته (عزيز) أعز أصدقائه ، وأقربهم إلى قلبه ، وأرفعهم منزلة ... وخجل أن يراه وهو يبكى ، فمسح دموعه المتحدرة بسرعة ، وحاول أن يكبت ما يعتلج فى فؤاده ، وبذل مجهوداً لكى يكتم مشاعره ، وألا يدع تعابير وجهه تكشف عما يجثم على صدره من هم ... وكان عزيز هذا غلاماً لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره ... رباه والده تربية دينية خالصة ، فشب كوالده تقياً ورعاً ... يؤدى الصلاة فى أوقاتها — حتى صلاة الفجر — ... وكان للقصص الدينية التى يلقنها إياه والده بين حين وآخر تأثير شديد ملأ قلبه بالإيمان والاقتناع والخشوع ... وكان يحب (محسن) حباً جمًّا ، ويعطف عليه ، ويحاول دائماً أن يخفف بعض ما ينوء به كاهله من هموم ... ولم تفت عينيه النافذتين ما يقاسيه صديقه من كرب فسأله :

— ماذا بك يا محسن ؟

وأجابه محسن وهو يلتفت إلى الناحية الأخرى :

— لا شىء ...

— ولكن عينيك المورمتين من البكاء تقول إن هناك شيئاً . وتصور محسن المنظر الذى حدث له من قبل لحظة فى ذهنه فعاوده الأسى والقهر فانفجر باكياً ... وقال له (عزيز) وهو يحاول أن يخفف عنه وقد بلغه التأثر :

— أرجوك ... أرجوك أن تكف عن البكاء ... قل لى ما هى الحكاية ؟ . وكأنَّ محسن كان ينتظر هذه الفرصة من زمان لكى يفرغ ما فى قلبه من حنق وينفس عما يحسه فى ضيم وقهر ... فصاح قائلا :

— إنه أبى ... لقد ضربنى وأهاننى أمام زملائى ... واستمر فى بكائه فربَّت صديقه على ظهره بلطف وهو يهدىء ثائرته . ويحاول إقناعه :

— خفف من غلوائك يا محسن ... فإنه على كل حال أبوك ... ويجب أن تطيعه .

— ولكن اليوم عطلة .. وهو يريدنى أن أبقى فى البيت ..

←